المحاضرة الأولى:

الاتجاه التاريخي للرواية العربية الحديثة:

لقد خاضت الرواية العربية الحديثة معركة شرسة في سبيل ضبط قواعدها وحدودها مع الأجناس الأدبية الأخرى، فبعد أن كانت تائهة فير محددة بضوابط فنية صارمة، استطاعت أن تستفيد من الحركة النقدية آنذاك.

تلك الحركة التي استطاعت أن تقنن وتنظر للجنس الأدبي انطلاقا من هذا التحديد الفني للرواية، لقد وجدت هذه الأخيرة نفسها أمام كم هائل من الموضوعات والقضايا التي كانت تشغل المجتمع العربي عامة والروائي خاصة. من هنا حق لنا أن نتساءل عن الاتجاهات التي سلكتها الرواية العربية الحديثة.

إن الحديث عن اتجاهات الرواية العربية الحديثة حديث يستند إلى جملة من الخلفيات والمعطيات في آن واحد.

تتمثل تلك الخلفيات في المشاهد الثقافية التي كان ينهل منها الروائي العربي آنذاك، فهو يتكئ على إرث عربي ضخم يأهله لكتابة هذا الجنس الجديد (الرواية) إذ فيه من المعلومات والأخبار والأحداث ما يكفي لأن يكون مادة دسمة لهذا الجنس السردي الجديد.

إن هذا الإرث الذي أشرنا إليه متنوع بين السياسي والديني والتاريخي والاجتماعي والأسطوري ...إلخ. وهو الشيء الذي يسهم في تعدد اتجاهات الرواية بعد ذلك، أما بالنسبة للمعطيات فإننا نقصد بها تلك المدارس الأدبية التي ظهرت في العصر الحديث خاصة في أوربا تلك المذاهب التي عدت بحث مدارس قائمة بذاتها لكل مدرسة شروط وأساليب وقوانين فنية أدبية تميزها عن المدارس الأخرى، نذكر منها المدرسة الواقعية، الاشتراكية، الومانسية، الكلاسيكية...إلخ.

بالإضافة إلى الحركات النقدية النشطة التي ظهرت آنذاك في أوروبا وأمريكا والتي أسهمت إسهاما مباشرا وفعالا في تحديد اتجاهات الإبداع وضبط مساربه التي من خلالها يعطي للجنس الأدبي هويته واتجاهه.

إذن لم تكن الرواية العربية الحديث بعيدة عن تالك الحركة الأدبية والنقدية النشطة آنذاك، لذا وجدناها تتلمس طريقها نحو اتجاهات مختلفة فرضها الواقع العربي مرة وتأثرا لما أنجزه الغرب من منتوج أدبي ونقدي تارة أخرى.

انطلاقا من هذه الحقيقة برزت جملة من الاتجاهات في الرواية العربية الحديثة (كالاتجاه التاريخي، والواقعي، والنفسي، والاجتماعي...إلخ).

1- الاتجاه التاريخي: مفهوم الرواية التاريخية:

الرواية التاريخية عمل سردي يرمي إلى إعادة حقبة من الماضي بطريقة تخيلية، حيث تتداخل شخصية تاريخية مع شخصيات متخيلة، تحتوي الرواية التاريخية على مادة تاريخية لكنها مقدمة بطريقة إبداعية وتخيلية تعانق فيها السرد التاريخي بالمتخيل أو الخيال.

تقوم الرواية التاريخية على أساس مادة تاريخية، لكنها تقدم وفق قواعد الخطاب الروائي القائم على البعد التخييلي مهما كان واقعيا أو حقيقيا، وهذا التخييل هو الذي يجعلها مختلفة عن الخطاب التاريخي.

ولذلك حدد النقاد عناصر فنية صارمة تجعل من المادة التاريخية رواية تاريخية.

المسافة الزمنية:

تتحدد الرواية التاريخية من خلال كونها تعتمد على حكي أحداث وقعت في الماضي، الشيء الذي يعني وجود مسافة زمنية جوهرية تقاس بالعقود والأجيال والقرون، بين زمان الحدث التاريخي المقدم في الرواية وزمان كتابتها.

إلا أن النقاد اختلفوا في تحديد المدة الزمنية التي تفصل بين الحدث التاريخي وزمن كتابته، فمنهم من اشترط أن يكون هذا الزمن طويلا جدا يقاس بالقرون ومنهم من أجاز أن تكون الفترة لا تتجاوز العقود.

الحقيقة الزمنية:

يقول أحد النقاد: إن الرواية تاريخ والتاريخ رواية.

انطلاقا من هذه المقولة نكتشف أن المؤرخ يروي تماما كالروائي وأن الروائي مؤرخ الحاضر، يتبين لنا أن التاريخ رواية ما وقع وأن الرواية تاريخ ما كان يمكن أن يقع.

إن الحديث عن الرواية التاريخية يقتضي التدقيق والتمييز بين الواقعي والتاريخي وفق تحديد خاص، وإلا أدرجنا كل الروايات التي تكتب في خانة الرواية التاريخية.

إن التباين بين الماضي (التاريخ) والحاضر (الواقع) أساسي للتمييز بين الزمنين فبموجبه يمكننا إقامة المسافة التامة بين واقعتين مختلفتين على مستوى المادة الحكائية والخطاب معا.

طبيعة المادة (الواقع والاحتمال):

نميز بين الواقعي والتاريخي من خلال الأحداث والوقائع فهي في الرواية التاريخية في العموم واقعة فعلا يتعامل معها القارئ بأنها حوادث جرت ويمكن التأكد منها بالرجوع إلى مختلف التدقيقات التي تمدنا بها الخطابات التاريخية سواء تعلق الأمر بالزمان أو الشخصية أو الفرد، أما في الرواية غير التاريخية فهي ممكنة الوقوع (الأحداث) أي (الاحتمال) لأن بعدها التخييلي الكامن في نوعية الخطاب ذاته يستدعي من القارئ تأجيل أو إلغاء قبول وقوعها حتى وإن كانت مؤشرات زمنية أو شخصية تنبئ بوقوعها فعلا.

المرجعية:

اسم القارئ بتاريخية الأحداث المقدمة إليه في نص ما من خلال مرجعيته فهي مادية ويمكن التحقق منها على وجه الإجمال وما لا يمكن التأكد منه يظل داخل في نطاق الزمان (التاريخ) الذي لا نعرف كل تفاصيله، أما في الواقعي فالمرجعية وهي تزاوج بين المادي والملموس الذي يمكن التثبت منه من خلال بعض المؤشرات الدالة عليه، والتخييلي الذي يمكن أن تثير الالتباس لدى القارئ فيتولد لديه الإحساس بأن ما يقرأ لا علاقة له بالتاريخ، وأن الإطار الموظف هو فقط ذريعة أو علامات على صلة الحدث بما وقع أو ممكن الوقوع.

قانون الكتابة (طريقة الرواية):

إن وقوع الفعل واحتماله والمرجعية التي تتحدد في بعدين؛ الواقعي والتاريخي، تتأكدان من خلال ما نسميه بقانون الكتابة أو المبدأ الذي يعين التواصل بين الكتابة والنص والقارئ، وهو يكمن في مجموعة من آليات التي تحدد عملية الكتابة والقراءة وتعمل على تعيين الميثاق الذي بمقتضاه يمكننا تحديد النوع في زمان معين.

يحضر في الرواية التاريخية ما يمكن أن نسميه بقانون المطابقة الذي يرمي من خلاله الروائي إلى الإيحاء بتاريخية ما يحكيه، وبأن الأحداث المقدمة تروي وكأنها جرت فعلا في الواقع التاريخي على النحو الذي تمثله الرواية انطلاقا من الاعتماد على المؤشرات التاريخية بكثرة، يضعنا هذا القانون بصبغته المشابهة والمطابقة في ضوء مفهوم المسافة الزمنية والحقبة الزمنية من خلال مفارقة إبداعية وتخييلية حيث نجد أنفسنا بين صدفة (واقعية) تمثل الرواية اللاتاريخية من جهة وأمام (قصد تخيلي) يمثل الرواية التاريخية من جهة أخرى.